

## جرجي زيدان والنهضة العربية

### دكتور جورج شكري زيدان \*

يعد جرجي زيدان من أبرز أركان النهضة العربية في أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين الذين عملوا على إرساء أسس القومية العربية العلمانية، وأصبح جرجي زيدان اسمًا مألوفًا في كثير من أنحاء العالم العربي. ويرجع ذلك أساسًا إلى الإحدى والعشرين رواية تاريخية التي كتبها والتي تناولت الأحداث من عصور ما قبل الإسلام إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية. كان جرجي زيدان أكثر من مجرد روائي، وصفه أحد المعلقين بأنه "رجال كثيرون في رجل واحد". فقد قدم مساهماته كثقافي بارز لحركة النهضة، وصحفي، ومؤرخ، ولغوي، ومعلم للمجتمع قام بتعليم وترفيه عامة الناس.

ولد زيدان عام 1861 في بيروت، وهاجر إلى مصر عام 1882، وتوفي في القاهرة عام 1914. وكانت إنجازات جرجي زيدان غزيرة ومتعددة. ففي فترة قصيرة جدا لا تبلغ ثلاثة عقود كتب جرجي زيدان على نطاق واسع عن التاريخ العربي والإسلامي. فمن أبرز أعماله تاريخ التمدن الإسلامي في خمسة مجلدات، والعرب قبل الإسلام، بالإضافة إلى روايات تاريخ الإسلام. كما ألف جرجي زيدان ثلاثة كتب رئيسية عن اللغة العربية وهي تاريخ أداب اللغة العربية، الفلسفة اللغوية والفاظ العربية، واللغة العربية كائن حي. و كان زيدان يؤمن أن اللغة العربية تمثل أساسًا مركزيًا للهوية العربية وكان مؤيدًا قويًا لإنشاء "المجمع اللغوي" على غرار "الأكاديمية الفرنسية" (Académie Française). وكما كتب بشارة تقلا، مؤسس الأهرام: "حقًا لو كان عمر المؤلفين يقاس بانتاجاتهم، كنا نظن أن جرجي زيدان توفي وعمره يتجاوز المائة بينما تركنا وعمره في أوائل الخمسينات".

ان كوني حفيد جرجي زيدان مصدر شرف كبير لي. وقد توفي جدي 25 عامًا قبل ولادتي، فلذلك عندما سئلت أكثر من مرّة عما إذا كنت أعرفه، كنت أجيب بشكل روتيني بـ "لا" دون إعطاء السؤال مزيدًا من التفكير. وفي اعقاب دراساتي الجامعية التحقت بالبنك الدولي لمدة 30 عامًا لتعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلدان النامية. وبعد تقاعدي قمت بتأسيس مؤسسة زيدان في عام 2009 بهدف إعلام الجمهور في مصر والخارج عن جرجي زيدان وأعماله. عندئذ أدركت لأول مرة مدي معرفتي لهذا الرجل من خلال الذكريات والقيم التي نقلها إليّ والدي شكري وعمي إميل. وشاهدت كيف بنوا دار الهلال حتى أصبحت ولا تزال حتى يومنا هذا من أكبر دور نشر للمجلات في الشرق الأوسط. كما قرأت ما كتبه جرجي زيدان عن أسرار نجاحه في سيرته الذاتية ومقالاته في الهلال والرسائل التي تبادلها مع عائلته وزملائه.

كان جرجي زيدان نجل صاحب مطعم أمي (قهوجي)، وعصاميا بني نفسه بنفسه. أجبره والده على ترك المدرسة الابتدائية لمساعدته في إدارة مطعمه التجاري. فكل ما تعلمه زيدان كان تعليمًا ذاتيًا باستثناء عامين في المدرسة الابتدائية وسنة واحدة في كلية الطب بالكلية السورية البروتستانتية التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت. وقد تبنى قيم الطبقة الوسطى ومنحته جذوره فهماً جيداً لقراءه، فساهم وعيه الاجتماعي في نجاحه كصحفي وكاتب.

وكان زيدان يعتقد أن تحقيق الذات والنمو الشخصي مسؤولية الفرد، وأن الصفات الشخصية - قوة الإرادة والنزاهة والاستقامة - أكثر أهمية للنجاح من المعرفة أو التعليم أو التراث. وقد نسب نجاحه أولاً وقبل كل شيء إلى العمل الجاد والوعي بالوقت، والمواظبة، والإدارة، ولا سيما التسويق، وهي سمات هامة جداً للنجاح. وبالنسبة للصحفيين والكتاب، كان كل هذا يعني اختيار مواضيع مثيرة للاهتمام، والكتابة بموضوعية وبأسلوب سهل واضح. فضلاً عن صدقه قولاً وعملاً أكسبه ثقة جمهور واسع من القراء. ووصفه خليل مطران على النحو التالي: "لم أعرف رجلاً مثله يجمع بين صفتين متناقضتين - العظمة والتواضع".

هاجر زيدان إلى مصر عام 1882 لأنه رفض في سنته الأولى كطالب الخضوع لإملاءات الكلية البروتستانتية السورية. عندما تم فصل أحد أساتذته بسبب تعليمه نظريات داروين، انضم زيدان إلى إضراب طلبة الكلية. وعلق توماس فيليب على هذه الحلقة كما يلي: "في الاجتماع الأول للطلاب المحتجين، تم تعيينه رئيساً للاجتماع. سارع زيدان إلى توضيح أنه تم اختياره بفضل طبيعته التصالحية. لكنه ظهر كواحد من اثنين من طلاب فصله الذين رفضوا قبول الشروط التي وضعتها الكلية لعودة الطلاب المضربين وغادروا الكلية لعدم العودة إليها أبداً". وهكذا هاجر جرجي زيدان إلى مصر.

وكان والدي شكري عمره احد عشر عاماً فقط عندما توفي جرجي، وقد اخبرني مرارا ان والده كان له تأثير كبير عليه. واختبرت هذا التأثير ايضا بطرق مختلفة. كان القول المفضل لوالدي هو "الحلم سيد الأخلاق". ففي عالم الصحافة، كان هذا يعني أن الاعتبارات الشخصية يجب الا تؤثر على ما ينشر؛ ويجب ايضا التعامل مع القضايا بأكبر قدر من الموضوعية، وحظر الهجمات الشخصية مطلقاً. أخبرني والدي أكثر من مرة أنه وعمي اميل قررا أن دار الهلال لن تنشر صحيفة يومية حيث قد تصبح أداة سياسية تتعارض مع الشعار أن الكتاب يجب أن يكونوا موضوعيين وان يظهر الصدق والصرامة دون الميل الى اي انتماء او حزب.

وخلال الحوارات العديدة مع عمي إميل حول المبادئ والقيم التي آمن بها جرجي زيدان سألت عمي عن معنى لوحة منقوشة على مكتبه: "لا يصح إلا الصحيح"، وهي مقالة جرجي في "الهلال" (مايو 1912) تركز على أهمية الحقيقة والصدق في العلاقات الشخصية والتجارية. وسألت إميل عن أهمية اللوحة ذات يوم عندما كنت في مكتبه فترجمها باقتباس باللغة الإنجليزية: honesty is the best policy او "الصدق هو أفضل سياسة". وهذا يعني التوازن والحكم الجيد (common sense) والالتزام بالحقائق والقضايا دون أن تحل الكلمات والحجج محل الأفعال. وكان من مبادئ "الهلال" تشجيع النقد البناء من القراء وغيرهم ونشره.

وختاماً اثرت مبادئ جرجي زيدان وقيمه علي بشكل فعال. أدركت بعد أن أسست "مؤسسة زيدان" وقرأت أعماله وتذكرت تفاعلاتي مع أبنائه، ان تركيز دراساتي وعملي علي مساعدة البلدان النامية تآثر تأثيراً كبيراً بدور جدي في النهضة العربية وسعيه في تثقيف الشعوب العربية.

\*\*\*\*\*

تأسست مجلة "الهلال" عام 1892 وتم نشرها بدون انقطاع حتى يومنا هذا - وهي أطول فترة إصدار لأي مجلة في العالم العربي. ربما يصعب علينا في عصرنا هذا أن نتخيل أن قبل عام 1892، عندما نُشرت "الهلال" لأول مرة، كان عدد الصحف والمجلات والكتب في معظم العالم العربي محدودة جداً. وكان على حفنة من الرجال أن يغيروا كل ذلك، وكان جرجي زيدان من أبرزهم.

كان جرجي زيدان مؤسس مجلة "الهلال" وكاتبها، ورئيس تحريرها، ومديرها، وناشرها. سعى زيدان إلى جعلها دورية شعبية تؤثر على الرأي العام وتساعد في تثقيف الجمهور. وعندما صدرت "الهلال" لأول مرة في عام 1892 كانت الثقافة في مصر مقتصرة على المجالات الأدبية. منحت الدورية الجديدة الثقافة معنى أوسع وأشمل تضمنت التاريخ والعلوم والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وبذلك دمجت الفكر بالفن والعلم بالفلسفة. وكان زيدان يؤمن بأهمية التعليم لجميع أفراد المجتمع وكان داعماً رئيسياً لإنشاء جامعة القاهرة، وهي أول جامعة تم إنشاؤها في مصر عام 1908.

كما حوّل زيدان "الهلال" إلى منصة لأعمال المؤلفين المتميزين ورواد الأدب العربي ومنهم عمالقة مثل الأساتذة حسين هيكل، وطه حسين، ومحمد فريد وجدي، وعلي الجريم، وعباس محمود العقاد، ومصطفى لطفى المنفلوطي، وأحمد أمين، وجبران خليل جبران، وخليل مطران، والكاتبة مي زيادة وغيرهم الكثيرين. وكل هذا جعل من الهلال مؤسسة صحفية راقية وفريدة من نوعها.

وقرب نهاية حياته، خلال الأزمة الدستورية في الإمبراطورية العثمانية عام 1908، فكر جرجي زيدان في العوامل التي تجعل المجتمع مميزاً وقادته شريعيون ومقبولون. غير أن "الهلال" ظلت في الغالب مشروعة ثقافياً ولم تتخرب في الخطاب السياسي. إن اعتقاد جرجي زيدان بأن الكتاب يجب أن يكونوا موضوعيين قدر الإمكان وأن "يظهروا الحقيقة والصراحة دون أن يميلوا إلى أي انتماء أو حزب" فضلاً عن طبيعته التصالحية، فكل هذا أبقاه في عالم المفكرين وبعيداً عن النشاط السياسي.

احتفلت أعداد خاصة من "الهلال" بالذكرى المئوية لتأسيسها في عام 1992 ثم بذكرى مرور 125 سنة و130 سنة في عامي 2017 و2022. و يوضح غلاف عدد "الهلال" لسنة 2017 مساهمة جرجي زيدان في التراث الثقافي العربي بشكل فعال بهذه الكلمات: "الهلال" ليست مجرد مجلة، بل هي مستودع لتاريخ مصر والأمة العربية ودرع ضد التطرف والإرهاب". ينطبق هذا أيضاً على غلاف 2022 الذي جاء فيه: "الهلال" - لا تزال تكتب التاريخ".

عقب وفاة جرجي زيدان عام 1914، واصل نجلاه، إميل وشكري زيدان، نشر مجلة "الهلال". وأصبحت مؤسسة دار الهلال تحت قيادتهما رائدة في إطلاق أنواع جديدة من المجلات والدوريات. وعند تأميم دار الهلال في عام 1961، كانت قد أطلقت: "المصور"، أول مجلة أسبوعية مصورة في مصر عام 1924؛ "الكواكب"، أول مجلة أسبوعية للأفلام؛ "حواء"، المجلة الأسبوعية الأولى للمرأة. وعدة مجلات أسبوعية للأطفال أولها "سمير". بالإضافة إلى "الهلال" نشرت دار الهلال عدداً من الإصدارات الشهرية منها "روايات الهلال" و"كتاب الهلال" و"طبيبك الخاص" وغيرها.

لعبت دار الهلال دوراً كبيراً في تطوير الصحافة في مصر، ولعبت أيضاً دوراً فعالاً كمدرسة للصحافة. ارتبط العديد من الصحفيين وأصحاب دور النشر المعروفين بدار الهلال حيث بدأوا عملهم بالدار. نجيب متري أسس دار المعارف بعد ارتباطه بجرجي زيدان. عمل مصطفى وعلي أمين عدة سنوات في دار الهلال قبل أن يؤسس آخر ساعة ثم دار أخبار اليوم. كما عمل الرئيس أنور السادات لفترة وجيزة في دار الهلال وكتب مقالات في مجلاتها قبل أن يؤسس دار الجمهورية. كما شغل العديد من الكتاب المشهورين وظائف كمحررين لمجلاتها ومن بينهم الأساتذة فكري أباطة، أحمد بهاء الدين، يوسف السباعي، ومكرم محمد أحمد - وأصبح الأخيران رئيسين لمجلس إدارة دار الهلال.

كان جرجي زيدان كاتباً أداته القلم. كما كان رائداً في استخدام الرواية التاريخية كنوع جديد من الأدب العربي. ونشرت رواياته التاريخية الإحدى والعشرين (روايات تاريخ الإسلام) متسلسلة في مجلة "الهلال"، حيث قامت الدار بإعادة نشرها ككتب مرة أو مرتين كل عقد حتى الوقت الحاضر. دارت الروايات في سياق الأحداث التاريخية من عصور ما قبل الإسلام إلى نهاية لإمبراطورية العثمانية.

لا شك أن زيدان استخدم رواياته للترويج ولتعليم التاريخ بين عامة الناس. فكانت رواياته تهتم بتثقيف الجمهور حول الأحداث التاريخية أكثر من تركيزها على تحليل عواطف وانفعالات الأبطال والشخصيات الأخرى في قصصه. لقد قام بذلك باستخدام نثر واضح وبسيط نال إعجاب قرائه، ويرقي إلى ما وصفه الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي بأسلوب "السهل الممتنع".

لعبت روايات جرجي زيدان التاريخية دورًا مهمًا في النهضة. وساهمت في تنمية وعي وهوية عربية جديدة. ومن جانبه قام الدكتور طه حسين بتقييم مساهمات جرجي زيدان على النحو التالي: "إن الروايات التاريخية التي نشرها زيدان كان لها الأثر الأهم الذي مكن النهضة من أن تؤتي ثمارها التي لا يزال يستمتع بها القراء حتى اليوم".

لا تزال الروايات تحظى بشعبية حتى يومنا هذا في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي. كما أنها تحظى بشعبية في الغرب. تُرجمت رواياته إلى أكثر من عشر لغات - ترجمت جميعها (21) بالفارسية والعديد منها بالفرنسية (9)، والإنجليزية (6)، والتركية (6)، والأويغور (6)؛ وقليل منها باللغات الإسبانية والألمانية والأردنية والإندونيسية والكردية. يتم إعادة نشر الروايات كل عقد أو نحو ذلك في العالم العربي في مصر ولبنان وتونس. وتتوفر الآن ترجمة باللغة الإنجليزية من تاريخ التمدن الإسلامي.

وختاماً سعد جرجي زيدان (1861-1914) من بدايات متواضعة إلى قمم الشهرة والتقدير. كانت حياته قصيرة ومثمرة للغاية. كان رجلاً متعدد الوجوه، محركاً فاعلاً في حركة النهضة العربية، له تأثير عميق على ثقافة شعبه، وتاريخ العالم العربي، وأدب لغته. ساعدت كتاباته ورواياته التاريخية في تشكيل الهوية العربية الحديثة، وساهم في تأسيس وسائل الإعلام الحديثة في عصره، وتثقيف الجماهير، ونشر الثقافة للجمهور في مجمله. هذا هو التراث الذي تركه لشعبه والعالم.

\*\*\*\*\*

في عام 1992، احتفلت الحكومة المصرية بالذكرى المئوية لتأسيس الهلال وأصدرت أوبرا (هلال مصر) من إنتاج وزارة الثقافة حول حياة جرجي زيدان، وحضرها في دار الأوبرا الرئيس حسني مبارك ومسؤولون حكوميون وشخصيات بارزة مصرية وعربية. كما أصدرت الحكومة طابع "الهلال" التذكاري. وقامت الحكومة بسك عملة تذكارية من الفضة فئة الجنيه تحمل صورة جرجي زيدان. كما قامت مكتبة الإسكندرية برقمنة إصدارات مجلة الهلال من عام 1892 إلى عام 2007 كجزء من مشروعها حول ذاكرة مصر الحديثة.

وكانت مساهمتي في حفظ ذاكرة جرجي هي تأسيس "مؤسسة زيدان" في عام 2009 وتم إطلاق موقعها على الإنترنت في عام 2012 ([www.zaidanfoundation.org](http://www.zaidanfoundation.org)) لتكريم تراث وأعمال وإنجازات جرجي زيدان ونشر مساهماته في جميع أنحاء العالم. وتم تصميم الموقع ليصبح مصدرًا قيماً للعلماء والقراء في جميع أنحاء العالم؛ ويتضمن الموقع قائمة المراجع التي تحتوي أهم الأعمال لجرجي زيدان وعنه باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية. ويمكن قراءة أعداد 115 سنة (1892-2007) من مجلة "الهلال" على الموقع. ويمكن أيضاً قراءة إحدى عشرة رواية باللغة العربية. كما تمت إضافة سيرته الذاتية على الموقع. وأخيراً وليس آخراً يمكن مشاهدة "هلال مصر" ومقاطع فيديو أخرى عن زيدان على ذات الموقع.

\*\*\*\*\*

## جورج شكري زيدان\*

ولد جورج شكري زيدان حفيد جرجي زيدان في القاهرة عام 1939. تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام 1959. حصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد الدولي من كلية لندن للاقتصاد عام 1962، وحصل على الدكتوراة في اقتصاديات التنمية من جامعة هارفارد عام 1967. وكان الدكتور زيدان مديرا في البنك الدولي يرأس قسم دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وقدمت إدارته قروضا لدعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية في مصر. وهو الآن رئيس مؤسسة زيدان التي أنشأها في عام 2009 لتعزيز التراث العلماني العربي الذي كانت دار الهلال جزءا مهماً منه.

يونيو 2023